

تفسير ابن كثير

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ
الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ^ط ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

اختلف المفسرون في قوله : (إني متوفيك ورافعك إلي) فقال قتادة وغيره : هذا من
المقدم والمؤخر ، تقديره : إني رافعك إلي ومتوفيك ، يعني بعد ذلك . وقال علي بن أبي
طلحة عن ابن عباس : (إني متوفيك) أي : مميتك . وقال محمد بن إسحاق ، عمن لا
يتهم ، عن وهب بن منبه ، قال : توفاه الله ثلاث ساعات من النهار حين رفعه الله إليه
قال ابن إسحاق : والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه . وقال إسحاق
بن بشر عن إدريس ، عن وهب : أماته الله ثلاثة أيام ، ثم بعثه ، ثم رفعه . وقال مطر الوراق
: متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت وكذا قال ابن جرير : توفيه هو رفعه . وقال الأكثرون
: المراد بالوفاة هاهنا : النوم ، كما قال تعالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل [ويعلم ما
جرحتم بالنهار]) [الأنعام : 60] وقال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي

لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن
في ذلك لآيات لقوم يتفكرون] ([الزمر : 42] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول - إذا قام من النوم - : " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور " ، وقال
الله تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن
مريم رسول الله) إلى قوله [تعالى] (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً
حكيماً وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) [
النساء : 156 - 159] والضمير في قوله : (قبل موته) عائد على عيسى ، عليه السلام ،
أي : وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك حين ينزل إلى الأرض
قبل يوم القيامة ، على ما سيأتي بيانه ، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم ، لأنه يضع
الجزية ولا يقبل إلا الإسلام . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن عبد
الرحمن ، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، حدثنا الربيع بن أنس ، عن الحسن
أنه قال في قوله : (إني متوفيك) يعني وفاة المنام ، رفعه الله في منامه . قال الحسن :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود : " إن عيسى لم يمت ، وإنه راجع إليكم قبل

يوم القيامة " .وقوله تعالى : (ومطهرك من الذين كفروا) أي : برفعي إياك إلى السماء ()
وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) وهكذا وقع ، فإن المسيح ، عليه
السلام ، لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيئا بعده ، فمنهم من آمن بما بعثه الله
به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته ، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا
: هو الله . وآخرون قالوا : هو ثالث ثلاثة . وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن ، ورد على
كل فريق ، فاستمروا كذلك قريبا من ثلاثمائة سنة ، ثم نبع لهم ملك من ملوك اليونان ،
يقال له : قسطنطين ، فدخل في دين النصرانية ، قيل : حيلة ليفسده ، فإنه كان فيلسوفا ،
وقيل : جهلا منه ، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه ، وزاد فيه ونقص منه ، ووضعت
له القوانين والأمانة الكبيرة - التي هي الخيانة الحقيرة - وأحل في زمانه لحم الخنزير ،
وصلوا له إلى المشرق وصوروا له الكنائس ، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب
ارتكبه ، فيما يزعمون . وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس
والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد ، وبنى المدينة المنسوبة إليه
، واتبعه الطائفة الملكية منهم . وهم في هذا كله قاهرون لليهود ، أيدهم الله عليهم لأنهم

أقرب إلى الحق منهم ، وإن كان الجميع كفارا ، عليهم لعائن الله . فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض - إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي ، خاتم الرسل ، وسيد ولد آدم ، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق ، فكانوا أولى بكل نبي من أمته ، الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته ، مع ما قد حرفوا وبدلوا . ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم من الدين الحق ، الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ، ولا يزال قائما منصورا ظاهرا على كل دين . فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها ، واحتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميع الدول ، وكسروا كسرى ، وقصروا قيصر ، وسلبوهما كنوزهما ، وأنفقت في سبيل الله ، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم ، عز وجل ، في قوله : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) الآية [النور : 65] ولهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقا سلبوا النصرى

بلاد الشام وأجلوهم إلى الروم ، فلبثوا إلى مدينتهم القسطنطينية ، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة . وقد أخبر الصادق المصدوق أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ، ويستفيئون ما فيها من الأموال ، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدا ، لم ير الناس مثلاً ولا يرون بعدها نظيرها ، وقد جمعت في هذا جزءاً مفرداً . ولهذا قال تعالى : (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم) أي : يوم القيامة (فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون)